صفات العبقرية

لم يُسمِّ الناس فهم صفةٍ من الصفات الانسانية بقدر ما أساءوا فهم صفة العبقرية والنبوغ . فالعبقري عند القدماء رفيق الجن والشياطين وخدين الارواح المؤذية والقوى الجامحة . ومن هنا اشتقاق اللفظ في العربية واللغات الاجنبية . فالعبقري يستلهم الجن ويستوحيه ان كان شاعراً ، فلا يؤتى الوحي الاَّ اذا أتى لعونه وتأييد شيطانهُ الخاص. وهو ساحرٌ ماكر يقتبس من عالم الارواح السفلية ان كان عالماً او مخترعاً يُدهش العالم باكتشافاته واختراعاته

ثم دالت دولة الاوهام واستنارت البصائر واصبح الناس ينظرون الى ظواهر الحياة والطبيعة نظراً علميًّا مجرداً وامسى العبقري شخصية لتستطيع ان تدرسها وتعالجها بما عندنا من وسائل دون اللجوء الى اوهام الماضي من نسبة كل شيء لا نستطيع فهمه الى القوى الخارقة والارواح الشريرة او الصالحة . الاَّ ان الناس — بالرغم عن هذا — ظلوا يعيشون الظن بالعبقرية ولم يشاءوا ان يعتبروا العبقري الاَّ انهُ كائن يختلف اختلافاً اساسيًّا عن الدهماء من الناس ويميل الى الشذوذ في اخلاقه ومواهبه

واخيراً جاء لمبروزو وحاول ان يشتقَّ من آراء العامة واشباه العامة ، ومما هداهُ اليه الاستقراء ، وصفاً جامعاً مانعاً للعبقرية . فكانت نظريته ان العبقرية والجنون هما ، في الغالب ، صنوان لا يفترقان ، وان العبقري رجل « شاذ الاخلاق سقيم الجسم مضطرب الاعصاب » وقد لاقت هذه النظرية رواجاً عظيماً وصادفت هوًى من نفوس الناس . ذلك انها ارضت جانب الانانية من نفوسهم وملقهم من حيث لا يشعر صاحب النظرية او يشعرون. فكأنَّ هذه النظرية كانت تهمس في آذانهم ان تعزَّوا ولا تبتئسوا ايها الناس اذا احسستم بنقص في احدى مواهبكم او لحظتم عيباً في ناحية من نواحي نفوسكم . فالعبقري الذي تتطاولون الى منزلته وتشرئب اعناقكم الى مركزه وتودون لو يهبكم الله بعض ما اسبغهُ الله عليه من آلائه وانعمه هو مخلوق سقيم الاعصاب منهوك الجسم شاذ الخلق ادعى ان يثير فيكم عوامل الحنو والرأفة من ان يثير عواطف الغيرة والحسد

قبل الناس هذه النظرية حيناً من الدهر دون تمحيص او تدبُّر الى ان قامت فئة من علماء الحياة والنفس انتبهت الى ما في نظرية لمبروزو من نقص في الاستقراء واستدلال

معكوس للحقائق. فجدّدت البحث على اساس علمي اختباري ، فأتت نتائجهم مخالفة كل المخالفة لمضمون نظرية لمبروزو دافعة لما يتّهم به العبقريون من شذوذ وانحراف في المواهب العقلية والخلقية

في انكلترا قام فرنسيس غالتون واثبت سنة ١٨٦٩ ان صفات العبقرية هي صفات عادية ولا تختلف عن صفات الدهماء من الناس الا في مبالغة بعضها في النموّ لا الانحراف. ودرس الفيلسوف الانكليزي هفلوك اس اعظم اصحاب العبقرية من الانكليز فوجد ان من ١٠٣٠ شخصاً درسهم ١٣ فقط كانوا مختلي العقول و١٩ كانوا مصابين بجنون خفيف او اصيبوا بجنون حاد ثم شفوا منهُ و١٢ احتلّ شعورهم عند ما تقدموا في السن . فاذا اخذت نسبة هذه الاعداد وجدتها ٤٫٢ ٪ . وهذا لا يجوز قطعاً ان يتّخذ اساساً للاخذ بنظرية لمبروزو او أيّة نظرية اخرى تحاول ان تسم العبقرية بسمة الشذوذ والانحراف

وفي اميركا اتجه البحث في العبقرية وجهتين : الوجهة التاريخية والوجهة التجريبية . وبحسب الدكتورة كاترين موريس كوكس اعظم من توفّر على دراسة العبقرية درساً تاريخيًّا ويحسب الاستاذ لويس ترمان اعظم الباحثين في صفات العبقرية على اساس التجربة والاختبار

فما اسفرت عنهُ مباحث الدكتورة كاترين ان الاحداث الذين عملوا اعمالاً متفوقة كان اقاربهم في مستوًى ذهني اعلى من مستوى العموم وان احوال محيطهم كانت افضل من محيطات غيرهم في ابان حداثتهم . كذلك وجدت ان الغالب على صفات العبقرية ان تظهر في الصغر . فڤولتير قرض الشعر في مهدم تقريباً ، وكولردج في سن الثالثة استطاع ان يقرأ فصلاً من التوراة وموزار ألّف قطعة موسيقية في سن الخامسة وغوته في سن الثامنة اخرج مؤلفاً ادبيًّا جيداً وجون ستيورت مل في سن الثالثة بدأ يتعلّم الاغريقية ومن الثالثة الى التاسعة بدأ يتعلّم الاغريقية واللاتينية الكلاسيكية . وفي السابعة قرأ افلاطون وفي الثامنة بدأ في دراسة اللاتينية . وفي هذه السنة ذاتها كان يدرس الهندسة الكروية . وفي العاشرة والحادية عشرة كان من دروسه علم الفلك والفلسفة الميكانيكية . ووجدت هذه الدكتورة ان العبقري الذي يقوم بالاعمال العظيمة يكون غالباً متفوقاً في ذكائه ، وان القيام بالاعمال العظيمة يرتكز على عاملين : عامل الذكاء وعامل الخلق ـ كالمثابرة والجلد والثقة بالنفس

اما لويس ترمان فقد اجرى كثيراً من الاختبارات والتجارب على عدد كبير من التلاميذ الذين يتسمون بأسمى الصفات العقلية ، فكانت نتائج ابحاثه كما يلي :

اولاً ان المتفوقين من التلاميذ يكونون في جميع ادوار حياتهم فوق المتوسط في سلامة اجسامهم ووزن اجسامهم وطول قامتهم. ووجد ايضاً ان تاريخ عائلاتهم اقلّ حفولاً بالامراض منهُ في عائلات غيرهم، وان امراضهم العصبية لا تزيد عن المتوسط . ولاحظ انهم يكونون اسرع

نموًّا من غيرهم . فالتسنين يظهر فيهم قبل غيرهم . وهم يمشون قبل غيرهم بمتوسط شهر واحد ويتكلمون قبلهم بمتوسط ٣ر٥ من الشهر . والتضوج الجنسي عندهم يأتي مبكراً بمتوسط سنة . ووجد ترمن ايضاً ان ٨٠ بالمائة من امهات العبقريين الذين درسهم كنَّ فوق المتوسط في سلامة اجسامهنَّ و٨ بالمائة فقط كنَّ دون المتوسط

واتضح من هذه الاختبارات انهُ لا اساس للاعتقاد القديم بأن ذوي المواهب العالية يكونون في الغالب اميل الى الشذوذ الاجتماعي والخلقي ، فقد وجد ترمن ان عدداً كبيراً من المتفوقين الذين درسهم اظهروا ميلاً شديداً واستعداداً كبيراً للالعاب الرياضية وغيرها من الاعمال الاجتماعية . ووجد انهم كانوا اكثر شعوراً بنفوسهم وأقلَّ غروراً وكبرياء واهتماماً بالامور الغريبة من غيرهم

ولاحظ ترمن ايضاً ان قوى التلاميذ المتفوقين اقرب ان تكون عامَّة من ان تكون خاصَّة — اي ان القوي في صفة يميل ان يكون قويًّا في صفة او صفات اخرى بعكس ما كان يُعتقد من ان الطبيعة اذا اعطت يد حادت وأخذت باليد الاخرى

كذلك وجد الاستاذ ترمن ان التلاميذ المتفوقين يأتون عادة من عائلات متفوقة في الذكاء وفي الصفات الخلقية العالية

* * *

اذاً هذه هي صفات العبقريين وهذا هو حظهم من المواهب العقلية والجسمية وهو حظ ليس بالنذر او القليل . وللقارىء ان يسأل : لماذا اذاً ركب الناس ما ركبوا من خطأ بشأن العبقرية ؟ أهو الجهل بطبيعة العبقرية وحده ما يجعلهم يحكمون الاحكام الجائرة على العبقرية ؟ مما لا شك فيه ان للجهل يداً في هذا . ولكن ذلك الى حدٍّ محدود . ونعتقد ان في صفات العبقرية والنبوغ ذاتها ما يثير العداء ضدهم ويجعل الناس يستمرئون مستوى متوسطهم . فالعبقري جبل يتطاول بين سلاسل من التلال المطمئنة فيشعر أوساط الناس — لدن يقيسون اقدارهم الى قدره — بأنوارهم تكشف ، فيثير هذا حفائظهم ويغذي نقمتهم لما يحسونهُ من نقص في المواهب العقلية وبعد عن المثل الاعلى للتضوج العقلي . ومن هنا نرانا الى تضخيم سيآت العبقري اميل وبتشويه سمعته اعلق ، كأنَّا نتقم لمزتنا المجروحة منهُ . ومن هنا صدق القول : من اشرف فقد استهدف . واذاً يصحُّ القول أن ما فطرنا عليهِ من أنانية عميقة وما جُبلنا عليهِ من حبٍّ للنفس شديد يجعلاننا نميل ميلاً مسرفاً الى تضخيم هنات العبقري ، وقد يكون حظه منها دون حظ غيره ، وغلب عليهِ كل كبيرة وصغيرة

ولا ينكر ايضاً ان العبقري لا يبالي ما اصطلح عليهِ الناس من عادات وما تواضعوا

عليه من اخلاق ، لانهُ يرى نفسهُ اعظم من ان تحدَّه مثل هذه الحدود او تقيده مثل هذه القيود . ولذا فالبقري لا يوصف بالاعتدال (والاعتدال هو دائماً النزول على حكم الاكثرية) ومن هنا ما يجده البقري من تأييد شديد او عداء شديد . فهو في آرائه ونزعاته وأخلاقه ينحاز غالباً الى احد طرفي المبالغة . فهو لذلك — يوافق فئة اشد الموافقة ويعادي فئة اشد العداء . وسقراط والمتنبي وغاليليو وداروين ولينين واضرابهم أمثلة واضحة على أن البقرية تثير أقوى العداوات وأشد العطف

والبقريون يمتازون بالبساطة والتواضع في غير ذلة والبعد عن المكر والرياء . ولذا فهم لا يستطيعون ان يموّهوا آراءهم ليظهروا بالمظهر السائد في عصرهم . ولذا نراهم دائماً على خلاف مع محيطهم فمزى هذا فيهم الى الشذوذ وعدم المقدرة على التكيف . ولو انصف الناس وخرجوا عن انانيتهم قليلاً لعزوا صفة الجمود وعدم المقدرة على التكيف الى المحيط نفسه فالطبيعة لا ترسل العظيم والبقري ليضحي بوقاً يردد صدى اصوات الجمهور انما ارسلتهُ نوراً وهداية يؤتم بهو يهتدى بهديه . وكأنَّ البقري يفهم غرض الطبيعة ولذا فهو غالباً شديداً العناد ثابت العزم لا يثنيه او يوقفه دون غايته شيء

وحينما يثبت البقري للناس انهُ يمتاز عليهم بصفة من الصفات توجه اليه الانظار بوائق الاستغراب والانانية . ويضحي هدفاً للدرس وموضوعاً للنقد والنقيد . فتظهر جميع صفاته دقيقها وجليلها — واضحة جلية وتطبع في اذهان الناس . فيستقرُّ في اذهان هؤلاء الناس ان البقرية تميل الى المبالغة في الصفات المستحبة والصفات البغيضة على السواء . من كان يعرف عن المتنبي اشتهاره بالبخل والكنازة (ان صحَّ انهُ كان بخيلاً) لو رضي لنفسه ان يبقى خاملاً ولم يصُغ قصائده التي كانت تثير في حزب الحساد والمزاحمين من الحقد والضغينة بقدر ما كانت تبعث في نفوس الاحزاب الاخرى من اتصال بمثل الحياة العليا ومعاني الرجولة ؟ ومن كان يدري ان المعري كان فريسة التشاؤم لولم يقل اشعاره الخالدة؟ وماذا كنت تعرف عن اخلاق نابليون الشاذة ونزعاته الطائشة وأنانيته الشديدة لو قدّر له حظ متوسط من المواهب . ان البقري كالصباح القائم على عمود عال يلاحظ ويرى من بعيد ، ولكنهُ في الوقت ذاته ، يبدي للشاهدين كل ما يحيط به ويرتكز عليه

اذاً فالبقري يبدو لنا شاذاً لاننا نحب ان يظهر بمظهر الشذوذ لا لانهُ شاذ بطبيعته ولأن له مثلاً عليا ومقاييس للحياة غير مثلنا ومقاييسنا ، ولانهُ يبرزه وناحية شأنه ينبه الافكار الى هناته وهفواته التي هي هنات وهفوات الناس جميعاً

شرقي الاردن اديب عباسي